نظريات انتقال القوة والتغير السّلمي: هل سيكون صعود الصّين سلميًا؟

سليم قسوم
أستاذ مساعد (أ)،جامعة 8 ماي 1945 قالمة
باحث دكتوراه جامعة باتنة 1
guessoum.salim@univ-guelma.dz

ملخص:

لقد شكلت "انتقالات القوة" عبر التاريخ أو التغيرات السّريعة في معدلات القوة العسكرية والاقتصادية والسّياسية للقوى الكبرى ضمن النّظام الدولي سببًا في عدم الاستقرار، أين وجدت القوة المهيمنة وكذا الصّاعدة حديثًا صعوبة في استيعاب مصالحها مع بعضها البعض. الأمر الذي عمل على سحبها في العديد من الحالات التاريخية إلى ما أطلق عليه "فخ ثوسيديدس". ويمثل الصّعود الصيني اليوم حالة يحيط بها الكثير من الجدل السّياسي والأكاديمي. وعليه، سنحاول عبر هذه الورقة مناقشة أحد المواضيع الخلافية بالأساس في راهن العلاقات الدولية، والمتعلقة بإمكانية الصّعود السّلمي للصين. فالبحث في ما إذا كانت الصين ستغير قواعد النّظام الدولي بشكل يفضي إلى الحرب أم لا تبقى مسألة يحيط بها الكثير من الغموض. غير أنه وعلى الرغم من عدم وجود إجابة مقنعة على هذا السؤال الغامض، سنسعى إلى محاولة تسليط الضوء على أهم زوايا هذا النقاش عبر فحصنا لبعض الإستبصارات النظرية المؤطرة له ضمن أدبيات التنظير في حقل العلاقات الدولية.

الكلمات المفتاحية: نظريات انتقال القوة، التغير السّلمي، صعود الصّين، استيعاب القوى الصّاعدة. فخ ثوسيديدس.

Abstract:

Throughout history, "power transitions,'' or rapid changes in the relative political, military, and economic strength of the major powers in the international system, have been a cause of instability as long-dominant and newly emerging states have found it difficult to accommodate one another's interests. Power transitions have tended in many historical cases to bring rising powers and hegemonic ones into “Thucydides’s trap”. The rise of china today constitutes an essential contested issue and discourses about it surrounded by much political and academic controversy.

In this paper, I will try to discuss the problem of China's peaceful rise, Throughout some of the theoretical lenses in the field of international relations. However, the rise of China and if China will change the rules of the international order in a way that leads to war or not remains an ambiguous question. And until now, there is no convincing answer to it.

Keywords: Power transition theories, Peaceful change, China rise, Accommodating rising powers, Thucydides’s trap.

مقدمة:

لقد جذب انخراط الصّين المتزايد ضمن مختلف التفاعلات الدّولية على الصّعيدين الإقليمي والعالمي، اهتمام الكثير من الباحثين، أين شكّلت سياستها واستراتيجيتها الخارجية موضوعًا نقاشيًا صبغه ومازال خلاف بين مختلف الاتجاهات التنظيرية في حقل العلاقات الدولية. فقد سلّط العديد من الدارسين الضوء على التغيير بعيد المدى في سياسة الصّين الخارجية وممارساتها الدبلوماسية؛ فقد جادل كل من "إيفان ميديروس" و"تايلر فرافل" Evan Medeiros and M. Taylor Fravel بأن مشاركة الصّين الخارجية قد أصبحت أكثر نشاطًا، وأكثر اعتدالاً، وتنوعًا.(Medeiros & Fravel, 2003, p. 1) في حين ذهب "ليو غيولي"Liu Guoli إلى القول بأنّه" بالتّزامن مع نموها الإقتصادي السّريع والتحول الإجتماعي العميق، فالسّياسة الخارجية الصّينية تختبر انتقالاً بالغ الأهمية."(Liu, 2004, p. 1) " من جهته، أشار"باري بوزان" Barry Buzan إلى "أن الصّين عند نقطة تحول فارقة أكبر من أي وقت مضى منذ أواخر السّبعينيات. فبعض السّياسات التي عملت بنجاح كبير على مدى السنوات الثلاثين الماضية لن تعمل في الثلاثين المقبلة. إن الاستمرار في "الصعود السّلمي" Peaceful rise سيزداد صعوبة."(Buzan, 2010, p. 6). ضمن هذا السّياق، ومع بدء الإصلاحات الإقتصادية عام 1979 أصبح الإقتصاد الصّينى متحررًا وموسّعًا، مع سعي قيادته إلى تحديث الجيش فى محاولةإثبات للعالم أن الصّين ليست مجرد دولة نامية فى العالم الثالث. هذا النمو الذي فُسّر من قبل الكثيرين – سياسيين وأكاديميين– ضمن ما يعرف بنظرية "التهديد الصّيني." China threat theory على أنه تهديد جدّي للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، في إشارة إلى أن الصّين ستستخدم قوتها لزعزعة الإستقرار الإقليمي والعالمي (Broomfield, 2003, p. 266)

تسعى هذه الورقة إلى مناقشة أحد المواضيع الخلافية بالأساس في راهن العلاقات الدولية، والمتعلقة بإمكانية الصّعود السّلمي للصين. فالبحث في ما إذا كانت الصين ستغير قواعد النّظام الدولي بشكل يفضي إلى الحرب أم لا تبقى مسألة يحيط بها الكثير من الغموض. غير أنه وعلى الرغم من عدم وجود إجابة مقنعة على هذا السؤال الغامض، سنسعى إلى محاولة تسليط الضوء على أهم زوايا هذا النقاش عبر فحصنا لبعض الإستبصارات النظرية المؤطرة له ضمن أدبيات التنظير في حقل العلاقات الدولية.

1. نظريات انتقال القوة وصعود الصّين: هل يشكل فخ ثوسيديدس مسارًا حتميًا؟

عندما طرح "أ.ف.ك. أورغانسكي" A. F. K. Organski "نظرية انتقال القوة" Power Transition Theory كان يحاول تحليل السّياسة العالمية من خلال تقديم نظام هرمي للقوى أو الدول على ضوء نسب موارد القوة وإمكانية نشوب الحرب. وعليه، فهو من خلالها يصف نظامًا هرميًا تراتبيًا، بحيث تُعرَّف جميع الأمم وفقا لتراتبية النّظام هذه وكذا توزيع القوة النسبي ضمنه. ويتفاوت توزيع القوى بين الوحدات، أين تتركز القوة في يد قلة من الأمم. فـ "الأمة المسيطرة" Dominant Nation هي تلك التي تتربع وتعتلي أعلى هرم النّظام. وبالتالي، فهي التي تتحكم في النسبة الأعظم من المصادر فيه. غير أنها لا تمثل القوة المهيمنة Hegemon، على اعتبار أنها لا تستطيع بمفردها أن تتحكم في سلوكيات الفواعل القوية الأخرى. وفي ذات السّياق، فهي تحافظ على مكانتها كقوة مسيطرة عبر ضمان رجحان القوة لصالحها في مواجهة المنافسين المحتملين، وكذا إدارة النّظام الدولي ضمن القواعد المربحة لحلفائها والمرضية لطموحاتهم.(Tammen et al., 2000, p. 6)

ضمن موقع أدنى في هرم القوة الدّولية، تتربع "القوى العظمى" الأخرى Great Powers، وهي مجموعة من الدول الكبرى التي ليست قوية كفاية للقيام بدور المهيمن، غير أن لديها القدرة على أن تجعل من أنفسها منافسًا محتملًا للقوة المسيطرة. وعموما، فإن معظم القوى العظمى ترضى بالبقاء في تحالف مع الدولة المسيطرة. غير أنه، ضمن بعض الظروف، قد تزداد دولة من هذه المجموعة قوة بما فيه الكفاية ما يجعلها غير راضية بشكل كبير ما يحدوها إلى محاولة تغيير وضعها الراهن.(Kai, 2017, p. 22) فالقوى العظمى وغير الراضية كما يصفها أورغانسكي وكغلر"هي تلك التي نمت إلى أقصى قوتها بعد أن ترسخ النّظام الدولي الحالي تمامًا، ولم تكن لها بالتالي حصة في إنشائه، وتم بالفعل توزيع منافعه. كما أن القوة المسيطرة ومؤيدوها عموما غير راغبين في منح القادمين الجدد أكثر من جزء زهيد من المزايا التي تستمدها من الوضع الراهن... من جهتهم، يسعى المتحدون إلى تأسيس مكانة جديدة لهم في المجتمع الدولي، تلك المكانة التي يحسون قوتهم المتنامية تخولهم إياها. وغالبًا ما تتنامى قوة هذه الأمم بشكل سريع ويتوقع لها الاستمرار في النمو، ما يعطيها سببا للاعتقاد أنه باستطاعتها منافسة وحتى التفوق على الأمة المسيطرة من حيث القوة. كما أنهم لن يقبلوا وضع المُهَمَّشِ في الشؤون الدولية إذا كانت السيطرة سوف تمنحهم منافع وامتيازات أعظم." (Organski & Kugler, 1981, pp. 19–20)

ضمن مستوى أدنى تتموقع "القوى المتوسطة"Middle Powers، وهي دول قوية نسبيًا في أقاليم محددة ولكنها غير قادرة على تحدي الأمة المسيطرة أو بنية النّظام الدولي في مجملها. أما "القوى الصغيرة" و"المستعمرات" فهي تصطف أسفل الهرم الدّولي للقوة.

على صعيد آخر، يجادل أنصار انتقال القوة بأن هناك شرطين رئيسيين لانخراط القوة المسيطرة ومنافسيها المحتملين في نزاع عنيف أو حرب: "تكافؤ القوة"Power Parity و"عدم الرضى" Dissatisfaction؛ فأعلى احتمال للحرب يكون عندما تصبح القوة الإجمالية للمنافس الناشئ والأمة المسيطرة أكثر تناسبًا. (Kai, 2017, p. 23) وتتشكل القوة وتقاس ضمن أدبيات نظرية انتقال القوة من ثلاث عناصر أساسية: عدد الأفراد الذين بإمكانهم العمل والقتال، والإنتاجية الاقتصادية وكذا فعالية النّظام السّياسي في استخراج وتجميع إسهامات الأفراد لتحقيق الأهداف الوطنية.(Chan, 2005, pp. 694–6)ضمن هذا الطرح، من الواضح جدا أن للصّين أفضلية مؤكدة فيما يتعلق بالسّكان، في حين تحوز حاليًا ثاني أكبر اقتصاد في العالم بناتج قومي إجمالي بلغ 14.9 تريليون دولار العام 2017 (بنسبة نمو بلغت 6.9 %) في مقابل 19.9 تريليون دولار لذات العام بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية. ("World GDP Ranking 2017," n.d.)بالإضافة إلى أن النّظام السّياسي الإستبداي الفريد في الصّين من المرجح أن يضمن إرادة سياسية قوية تمكن بكين من الدفع قدماً بسياساتها الوطنية. (Kai, 2017, p. 41)

على غرار درجة القوة أو التكافؤ فيها، يشكل عامل الرضى متغيرًا هامًا في انتقالات القوة في النّظام، فإيمان المتحدي الصّاعد في أن بنى النّظام القائم لا يمنحها المنافع المتكافئة وتوقعاتها، وكذا مصالحها طويلة الأمد، يقودها إلى اعتباره نظامًا فاسدًا وغير منصف ومُسَيطرًا عليه من قوى عدوانية. وبالنتيجة، فهذا النوع من الأمم غير الراضي عن القيادة الدّولية القائمة وكذا القواعد والقيم المترسخة في النّظام يجعلها ترى في الوضع العالمي القائم اللاتلاؤم محبذة تغييره.(Tammen et al., 2000, p. 9) في حين تبقى الانتقالات السّلمية للقوة ممكنة فقط ما دامت القوة الصّاعدة راضية عن الوضع الراهن للنّظام. فمزيج الفرص والحوافز ووضعيات التكافؤ وعدم الرضا هي ما يشكل خطرا على استقرار النّظام الدولي.(Rauch, 2016, p. 61)

ضمن هذا السّياق، يؤكد أنصار انتقال القوة على أن عالمنا المعاصر يمثل نظامًا هرمياً بوجود الولايات المتحدة الأمريكية في قمته، مسيطرة بذلك على أكبر قدر من موارد القوة ضمنه، مع وجود احتمال كبير في أن يتم تجاوزها من قبل الصّين كمنافس محتمل في العقود المقبلة، أقله في مجال القوة الإقتصادية. كما أن دعوات الصّين لتغيير الوضع الراهن، وكذا بعض قواعد ومؤسسات النّظام المالي العالمي يشير إلى استياء بكين وعدم رضاها عن القيادة الحالية للولايات المتحدة. ضمن هذه الرؤية، هناك احتمال جدّي لانخراط كل من الولايات المتحدة والصين في نزاع عنيف (إن لم يكن حربًا كبرى) خصوصًا إذا كانت الولايات المتحدة وغيرها من أعضاء النّظام المسيطر لا تستوعب صعود الصّين ومصالحها ضمن النّظام القائم.(Kai, 2017, pp. 40–41)

من منطلق تنظيري آخر، يعتقد "روبرت جيلبن" Robert gilpin أن "حرب الهيمنة"[1] Hegemonic War لطالما كانت هي الوسيلة الرئيسة لحل مشكلة انعدام التوازن بين بنية النّظام الدولي وإعادة توزيع القوى. فانعدام توازن النّظام الدولي يعود إلى تزايد عدم الترابط بين حاكمية النّظام القائمة وإعادة توزيع القوى فيه. وعلى الرغم من استمرارية هرمية الهيبة، وتوزيع الأراضي وقواعد النّظام، والتقسيم الدّولي للعمل في مساندة القوة المسيطرة والمهيمنة، فإن قاعدة القوة التي تتأسس عليها قيادة وحاكمية النّظام تتآكل بسبب النمو والتطور التفاضليين بين الدول، أين يولد عدم الترابط هذا بين مكونات النّظام فرصًا للدول الصّاعدة وتحدّيا مهمًا للدول المسيطرة.(جيلبن، 2009،ص.227) من هذا المنطلق، يجادل جيلبن أنّه "عندما تزداد القوة النّسبية للدولة الصّاعدة، فإنها تحاول تغيير قواعد حكم النّظام الدولي، وتقسيم دوائر النفوذ، والأهم من ذلك، التوزيع الدولي للأراضي. وردًا على ذلك، تواجه القوة المسيطرة هذا التحدي بإجراء تغييرات على سياساتها التي تحاول إعادة التوازن إلى النّظام. ويكشف السجل التاريخي أنها إذا فشلت في هذه المحاولة، فسيحل انعدام التوازن عن طريق الحرب. [...] إن المهمة الأساسية للدولة المسيطرة التي تواجه تحديا هي حل ما أسماه والتر ليبمان المشكلة الأساسية للسّياسة الخارجية- إيجاد التوازن بين الالتزامات والموارد."(جيلبن، 2009، ص.ص. 228–29)

من جهة أخرى، تطرح واقعية "جون ميرشايمر" John J. Mearsheimer الهجومية ادّعاءات بخصوص كيف من المرجح أن تتصرف القوى الصّاعدة مع كيفية استجابة الدول الأخرى لها. فحسبه، لا تسعَ الدول لأن تكون القوة العظمى الأقوى ضمن النّظام فحسب، وإن كانت تلك نتيجة مرضية، بل يتمثل الهدف النهائي لكل منها في أن تصبح الدولة المهيمنة Hegemon، أي القوة العظمى الوحيدة في النّظام.(ميرشايمر، 2012، ص ص. 2–3) فطريق البقاء والبحث عن الأمن يمر حتمًا بالسّعي إلى الهيمنة، فالقوى العظمى لا ترض أبدًا عن التوزيع الحالي للقوة ضمن النّظام، ويسيطر عليها دائمًا دافع إلى تغييره لصالحها، فدائمًا ما تكون نواياها تعديلية[2]، مستخدمة القوة لتعديل التوازن إذا رأت أن بإمكانها أن تُقيم ذلك بثمن معقول. غير أنّه في بعض الأحيان تكون التكاليف والمخاطر كبيرة لدرجة إجبار القوى العظمى على الإنتظار وتحين الفرصة المواتية. مع أن الرغبة في زيادة القوة والهيمنة يبقى هدفها المنشود. وحيث أنه من غير المرجح أن تحقق أي دولة الهيمنة العالمية. فإن قدر العالم هو التنافس الدائم بين القوى العظمى. (ميرشايمر، 2012، ص.ص. 3) وفي ظل غياب الهيمنة العالمية، تبقى أفضل نتيجة هي أن تحقق الدولة الهيمنة الإقليمية، بهيمنتها على المنطقة الجغرافية الخاصة بها. وعليه، فالوضع المثالي لأي قوة عظمى هو وجودها كالقوة الوحيدة المهيمنة إقليميًا في العالم. (Mearsheimer, 2006, pp. 160–61)

وعن ما إذا كانت الصّين ستنمو بشكل سلمي يجيب ميرشايمر نفياً، فإذا واصلت الصّين نموها الاقتصادي المثير للإهتمام على مدى العقود القليلة القادمة، فإنّه من المرجح أن تحاول السيطرة على آسيا بالطريقة نفسها التي تسيطر بها الولايات المتحدة على نصف الكرة الغربي. وعلى وجه التحديد، ستسعى الصّين إلى تعظيم فجوة الطاقة بينها وبين جيرانها، خصوصاً مع اليابان وروسيا بالشكل الذي يجعلها تتأكد من أنها قوية لدرجة لا تسمح لأي دولة في آسيا بتهديدها. ضمن هذا السّياق، فإن صيناً قوية على نحو متزايد، ستسعى إلى دفع الولايات المتحدة للخروج من آسيا مصدرة نسختها الخاصة من عقيدة مونرو، كما فعلت اليابان في ثلاثينيات القرن الماضي. وعليه، فإنّه من المحتمل انخراطها مع الولايات المتحدة في منافسة أمنية حادة، مع إمكانية كبيرة للحرب. وسوف ينضم معظم جيران الصّين - بما في ذلك الهند واليابان وسنغافورة وكوريا الجنوبية وروسيا وفيتنام - إلى الولايات المتحدة في سبيل احتواء قوتها.(Mearsheimer, 2006, pp. 160–62)

وفي ذات السّياق، أثارت أفكار "غراهام أليسون"Graham Allison ضمن كتابه "متجهان للحرب: هل تستطيع أميركا والصين تجنب فخ ثوسيديدس؟"[3] الكثير من التأييدات والمخالفات على حد سواء. فما أسماه "فخ ثوسيديدس" Thucydides's Trap يصف ظاهرة تسبب القوة الصّاعدة في إثارة شعور القوة المهيمنة بالخوف الشديد مما يؤدي إلى الصّراع بينهما. وهذا ما ذهب إليه ثوسيديدس في تفسيره للحرب البيلوبونيزية بين اسبارطة وأثينا بقوله:"إنه صعود أثينا والخوف الذي سببه ذلك في اسبارطة هو ما جعل الحرب حتمية."(Allison, 2017, p. xiv) فقد وجد أليسون أنّه من أصل 16 حالة تنافس بين قوة مهيمنة وأخرى صاعدة على مدار 500 سنة خلت، انتهت 12 منها بنزاع عسكري، مشيراً إلى أن هذا الوضع يشكل القاعدة وليس الإستثناء. وبالتّالي، فقد لا تختلف الحالة الصّينية الأمريكية عن الحالات الاثني عشرة المشار إليها آنفاً. "فيمكن للولايات المتحدة والصين تجنب الحرب فقط، إذا تمكنتا من استيعاب حقيقتين صعبتين. أولاً، ضمن المسار الحالي، تبقى الحرب بين الولايات المتحدة والصين في العقود المقبلة ليست ممكنة فحسب، بل من المرجح بكثير وقوعها أكثر مما هو معترف به حاليًا. فالسجل التاريخي يشير إلى أن الحرب هي أكثر احتمالا من عدمها. وثانيا، الحرب ليست حتمية، فالتاريخ يظهر أن القوى المسيطرة الكبرى تستطيع إدارة العلاقات مع المنافسين دون إثارة حرب، حتى مع تلك التي تهدد بتجاوزها." (Allison, 2017, p. xvii)

لكن عند مقارنة خصوصيات الصراع الأسبرطي- الأثيني مع التنافس الصيني- الأميركي في العصر الحاضر فليس من الواضح أبدًا إن كان يمكن نقل "فخ ثوسيديدس" عبر الزمن والجغرافيا والأنظمة السياسية و الاقتصادية السّائدة. ففي الواقع بينما تتشابه دينامية التنافس بين القائد المهيمن والمنافس الصّاعد، تتجلى هناك اختلافات متعددة وواضحة بين الوضعيتين. غير أن يميلون عموماً إلى استبعاد أن يذهب أي من الطرفين إلى الحرب بشكل متعمد في عصر السّلاح النووي لا يستبعدون إمكانية وقوع اشتباك محدود، في بحر الصين الجنوبي مثلاً، قد يتطور بسهولة إلى شيء أكثر خطورة.

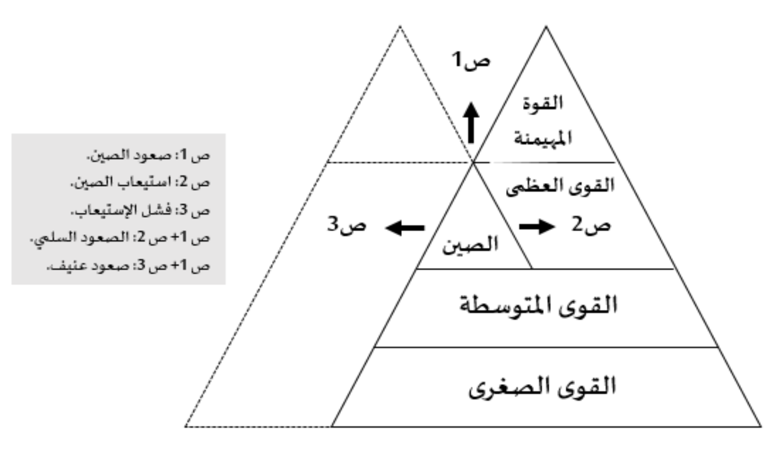
2. استيعاب القوى الصّاعدة: الصعود الصّيني والتغير السّلمي

يتضمن "الإستيعاب"Accommodation في العلاقات الدولية على مستوى القوى العظمى التكيف والقبول المتبادل بين القوى الراسخة ضمن النّظام والصّاعدة منها، وكذا القضاء على العداء بينها أو الحد منه بشكل كبير. فالإستيعاب في السّياسة الدولية عملية معقدة بشكل استثنائي، لأنها تنطوي على تعديل للوضع ضمن هرم القوة الدولية، وكذا تقاسم أدوار القيادة عبر الموافقة على عضوية وامتيازات المؤسسات،إضافة إلى

قبول مجالات النفوذ. اختصارًا، إنها الأشياء التي من النادر جدًّا أن تمنحها القوى المترسخة في النّظام لتلك الصّاعدة ضمنه.(Paul, 2016, p. 4) كما يشير مفهوم الإستيعاب أيضاً إلى خلق "السّلام المستدام" Sustained peace أو "السّلام العميق" Deep peace بين القوى الكبرى، فهو أقرب إلى"السّلام السّاخن"Warm peace على وصف "كينيث بولدينغ" Kenneth Boulding بمعنى الإستقرار المؤسس على التعاون والطمأنينة المتبادلة.[4] (Paul, 2016, pp. 4–5)

فصعود الصّين ضمن نظام عالمي تحت قيادة الولايات المتحدة يطرح بقوة مسألة درجة استيعاب الصّين ضمن هذا النّظام؛ فإذا كانت الولايات المتحدة غير قادرة على إيقاف النمو المتسارع للصين، فالطريقة الأكثر عملية هي محاولة جذبها ودعوتها إلى الإنخراط ضمن النّظام السائد ومساعدتها على التكيف مع دورها الجديد ضمنه. أما الفشل في استيعابها -كليًا أو جزئياً- فمن المؤكد أنه سيدفع بالصين بعيداً ما يجعلها تعتقد في ضرورة التأسيس لنظام جديد. و بالنتيجة، من المحتمل أن تصنع الولايات المتحدة عدوًّا مستاءً حقيقةً من الدور القيادي لها في عالم تبحث فيه الصّين على موقع يتناسب و قدراتها.(Kai, 2016, p. 39)

الشكل 1: استيعاب الصين ضمن النّظام الدولي



المصدر: (Kai, 2016, p. 39)

فكثير من الليبراليين يعتقدون في أن صينًا ديمقراطية ومنخرطة في النّظام الرأسمالي العالمي، لن تتصرف بطريقة عدوانية، بل سترضى بالوضع الراهن في شمال شرق آسيا. ويؤكد هذا المنطق أنه على الولايات المتحدة أن تشرك الصين تعزيزا لاندماجها في الإقتصاد الرأسمالي العالمي، وهي سياسة تسعى أيضا إلى تشجيع الصين على التحول إلى الديمقراطية. فإذا نجحت سياسة "الإشراك" Engagement سيكون بمقدور الولايات المتحدة أن تعمل مع الصّين الغنية والديمقراطية لأجل نشر السّلام حول العالم.(ميرشايمر، 2012، ص.5)

على غرار الكثيرين، وفي محاولة إجابته عما إذا كانت الصين ستسعى إلى إسقاط النّظام القائم أم تصبح جزءًا منه، يجادل "جون إكنبيري" John Ikenberry على أن صعود الصين ليس من الضروري أن يكون تحول هيمنة عنيف. فانتقال القوة بين الولايات المتحدة والصين من الممكن أن يختلف عن باقي الحالات التي

شهدها التاريخ. فالصين اليوم تواجه نظامًا دوليًا يختلف اختلافًا جوهريًا عن الأنظمة التي واجهتها باقي القوى الصّاعدة في الماضي. فالصين لا تواجه الولايات المتحدة لوحدها فقط، وإنما نظامًا مركزيًا غربياً مفتوحًا ومندمجًا، يستند إلى قواعد متينة، مع تأسيسات سياسية واسعة وعميقة. بالإضافة إلى أن الثورة النووية قد جعلت من الحرب بين القوى العظمى مستبعدة، مقصية بذلك الأداة الأساسية التي تستخدمها القوى الصّاعدة لقلب النّظام الدولي. هذا الأخير الذي وبشكل مؤكد ستدافع عنه الدول المهيمنة ضمنه. وعليه، فالنّظام الغربي اليوم من الصعب دحره بقدر ما هو من السّهل الإنضمام إليه.(fobn Ikenberry, 2008, p. 24) ومنه، فالصين اليوم بإمكانها الحصول على ولوج كامل إلى هذا النّظام مع إمكانية الإزدهار ضمنه. وبحدوث هذا، ستواصل الصين درجات الصعود، غير أن النّظام الغربي – إذا تمت إدارته بشكل جيد – سيبقى قائماً. فعلى الولايات المتحدة أن تعمل على تقوية القواعد والمؤسسات الداعمة له.(fobn Ikenberry, 2008, pp. 24–25)

ضمن هذه الرؤية، وبعيدًا عن التحليلات البنيوية ونظريات انتقال القوة، تُطرح مسألة "الانتقال السّلمي للقوة" Peaceful power transition وأنّه في إمكان الصين أن ترتقي سلميًا دون زعزتها لإستقرار النّظام الدولي. فالحرب ليست الآلية الوحيدة للتغيير في السّياسة الدولية، غير أنّه – بعبارات المؤرخ الإنجليزي "إدوارد هاليت كار" Edward H. Carr – يبقى التغير السّلمي يمثل معضلة جدية في العلاقات الدولية.

يُعبّر التغير السّلمي – على مستوى النّظام الدولي – عند كار عن إمكانية خضوع النّظام الدولي إلى تغييرات هامة كالتغير في القوة النسبية والوزن الإقتصادي للقوى الكبرى من غير أن يقود هذا إلى الإنخراط في نزاعات مسلحة. (Miall, 2007, pp. 10–11) وهو مثال للتعاريف الضيقة، المتضمنة بطرق متعددة مفهوم "السّلام السّلبي" Negative peace عند غالتونغ، و الدّال ببساطة على غياب الحرب أو وسائل العنف الأخرى ضمن العلاقات الإجتماعية.(Antola, 1984, p. 239) غير أن فكرة التغير السّلمي قد تطورت تدريجياً نحو تفسير أوسع نطاقاً يتضمن الحاجة إلى تجاوز بنية الوضع الراهن في النّظام الدّولي القائم. وهو ما تجلى في أعمال ما وسم بـ"المدرسة التوسيعية" Expansionist school ممثلة في عمل "وبستر"C. K. Webster سنة 1937 الذي وسع مفهوم التغير السّلمي ليغطي أنواعًا ثلاثة من التغييرات: (1) تغير سلمي في سبيل تخطي الحرب؛ (2) تغير سلمي لإنتاج العدالة، أو بشكل أفضل لإصلاحها؛ (3) تغير سلمي لإنتاج نظام عالمي أفضل تكيفاً و العمليات المادية و الروحية، يكون عاكسًا لحقائق العلاقات الدولية فعلاً. وهو بهذا يشير إلى التغير السّلمي في معناه الواسع.[5] (Antola, 1984, p. 244)

بالعودة إلى حالة الصين، فإنه لا يمكن تحقيق الصعود السّلمي من جانب الصين وحدها، بل فقط من خلال عمل هذه الأخيرة وبقية المجتمع الدولي سوية لخلق الظروف الضرورية. هذه الأخيرة التي خطها "شارلز كوبشان" Charles Kupchan في ثلاثة شروط تصف سمات الانتقال السّلمي: أولاً، يجب على كل من المهيمن والمنافس الصّاعد الإنخراط في عملية مستمرة من ضبط النّفس الاستراتيجي والإستيعاب المتبادل الذي يمكنهم في نهاية المطاف من النظر إلى بعضهم البعض كأنظمة حميدة. وثانيًا ينتج التحول السّلمي عبر الاحتكاك الفكري عندما ينجح المهيمن والمتحدي الصّاعد في صياغة اتفاق حول الخطوط العريضة للنّظام الدولي الجديد. أخيراً، لا يعتمد الإنتقال السّلمي على قدرة المهيمن والمتحدي الصّاعد على صياغة اتفاق حول النّظام وحسب، بل على قدرتهما على شرعنته أيضاً.(Kupchan, 2001, pp. 8–9; Paul, 2016, p. 9)

لقد شكل عام 1978 البداية الفعلية لعملية النّهوض السّلمي للصين، غير أن تبني الصّين لمفهوم "الصّعود السّلمي" Peaceful rise الذي صاغه "زنغ بيجيان"Zheng Bijian – رئيس منتدى الإصلاح الصّيني – كان سنة 2003. فالهدف الأصلي للصين من خلال تبني هذه الفكرة هو الدعوة إلى التخلي عن نظرية التهديد الصّيني بدلاً من اقتراح استراتيجية كبرى لتطورها الوطني.(Pan & Chen, 2013, p. 65) ومع أن عقودا أربعة من سياسات الإصلاح والإنفتاح وإعادة الإنخراط في المجتمع الدولي على قاعدة "الصّعود السّلمي" كانت ناجحة إلى حدًّ كبير، إلا أن توقع الاستمرارية ضمن هذا المسار يبقى محكومًا بعلاقات الصين مع المجتمع الدولي إقليميًا ةعالمياً، وخصوصا مع الولايات المتحدة واليابان. وإن كانت سياسات الصعود السّلمي ستصبح أكثر صعوبة. (Buzan, 2010, p. 6) فإنها تبقى غير مستحيلة.

فمن الواضح جدًّا أن علاقة الصّين والمجتمع الدولي قد عرفت تحولاً كبيرًا منذ أواخر السبعينيات، واللامختلف حوله أيضًا هو أن هذا التحول قد تم بنجاح كبير بطرق متعددة. إقليميًا، تعتبر الصين الآن على نطاق واسع "مواطناً صالحاً" من جانب معظم جيرانها في جنوب شرق آسيا، وبعد بداية مترددة، فقد اندمجت بشكل جيد ضمن المنظمات الحكومية الإقليمية التي نمت حول رابطة دول جنوب شرق آسيا "آسيان". ASEAN (Buzan, 2010, p. 14) هذا، إضافة إلى أنها تقاسم الكثير من جيرانها العديد من القيم الهامة؛ فهي تقارب قضايا السّيادة وعدم التدخل من منظار ويستفالي تقليدي، كما لها الرغبة في الحفاظ على القيم الثقافية المميزة، و كذا الالتزام بالتنمية المشتركة من خلال التجارة والاستثمار.

أما على المستوى العالمي، فالصورة تبقى مختلطة نوعا ما؛ فقد خطت الصين خطوات كبيرة في السّعي لتحقيق اندماج اقتصادها ضمن الاقتصاد العالمي، وبالأخص عضويتها في منظمة التجارة العالمية. كما قدمت بعض المساهمات في عمليات حفظ السّلام الدولية وعدم الانتشار، مع كون موقفها السّياسي كان هامشياً نسبياً. وعلى الرغم من منحها وضع القوة العظمى، فاعتبارها غير الديمقراطية الوحيدة بين الدول القائدة، يشكل عدم ارتياح للعديد من القوى العظمى الغربية الأخرى المسيطرة على النّظام الدولي. (Buzan, 2010, p. 14) كما كان رفضها لحكم محكمة التحكيم الدائمة سنة 2016 ضد مطالباتها الإقليمية في بحر الصين الجنوبي سببًا في إثارة تساؤلات مزعجة. ولكن حتى الآن لم يسع سلوك الصين إلى إسقاط النظام العالمي الليبرالي الذي تستفيد منه، بل تبحث دوماً زيادة نفوذها في إطاره. (Nye, 2017) فقد أكد زنغ بيجيان على أن طريق الصين للقوة والإزدهار هو طريق السّلم، مجادلاً بأن الصين لن تكرر مسار القوى الصاعدة السّابقة، التي عطّلت النّظام الدولي وانخرطت بذلك في التوسع العنيف للهيمنة على العالم. (Qin, 2011, p. 246) وبالمثل، يدافع "تشين ياكينغ" Qin Yaqing على فكرة كون الصّين قد أصبحت دولة الوضع الراهن أكثر منها ثورية أو تعديلية؛ فالصين تعيد تعريف مصالحها الأمنية من تصور سياسي-عسكري محض إلى آخر أكثر اتساعاً. كما أنّ ثقافتها الإستراتيجية قد تحولت من منظور نزاعي إلى تعاوني. ونتيجة لذلك، فإن هذا التحول في الهوية سيقلّل من الناحية النوعية من إمكانية الصعود العنيف للصين. واستناداً إلى حالة العلاقة بين الصين والمجتمع الدولي، يوجه تشين تصريحًا أكثر عمومية مفاده أنّه كلما زادت الدولة تعريف نفسها بشكل إيجابي في المجتمع الدولي، كلما كانت ثقافتها الاستراتيجية أكثر تعاونًا و مصالحها الأمنية تأول بشكل صحيح. (Qin, 2011, pp. 247–48)وعليه، فصعود الصين سلمياً سيعتمد في النهاية على هويتها كعضو مسؤول في المجتمع الدولي.

من منطلق هذه المسؤولية، يخشى بعض المراقبين في أن تمارس الصين "الركوب المجاني" مع نمو قوتها بدلاً من المساهمة في النّظام الدولي. فعلى الصين أن تعمل – كونها قوة كبرى – على توفير المصالح العامة

العالمية، مع ضرورة إستيعابها وإشراكها ضمن النّظام القائم وإلا فإن سياسات إقصائية وإنعزالية قد تعمل على سحب العالم إلى فخ كيندلبرجر؟[6] (Nye, 2017)

خاتمة:

بينما يجادل الكثير من الواقعيين وأنصار المقاربات البنيوية المرتكزة على القوة بأن الصين الصّاعدة ستعمل على جر الولايات المتحدة الأمريكية إلى فخ ثوسيديدس، يُقنع الكثيرون من الليبراليين والبنائيين على حد سواء أنفسهم بأن تزايد ثروة الصين وتعاظم قوتها سيجعلانها تسير على خطى ألمانيا واليابان، ودول أخرى شهدت تحولات عميقة وبرزت كديمقراطيات ليبرالية متقدمة. فالعولمة والنزعة القائمة على السّوق والاندماج في النّظام الدولي القائم على القانون،كلها عوامل ستؤدي في نهاية المطاف لأن تصبح الصّين ديمقراطية في الداخل، وتتطور إلى "شريك مسؤول" في الخارج. غير أن صعود الصين سلميًا يبقى صعب التحقيق ومحفوفا بكثير من المخاطر ما يدعو الصين والمجتمع الدولي إلى العمل معاً لأجل إدارة عمليات التحول ضمن النّظام القائم، و بالتالي تفادي وقوع حرب بين القوى الكبرى فيه. ومع أن المستقبل وحده كفيل بإيضاح الصورة الحقيقة لطبيعة صعود الصين، إلا أن تحقيق ذلك بشكل سلمي سيشكل إنجازًا ذو أهمية تاريخية عالمية على حد تعبير باري بوزان.

قائمة الهوامش:

1. تعد "نظرية حرب الهيمنة" Hegemonic War Theory لروبرت جيلبن التي ضمّنها كتابه الموسوم بـ "الحرب والتغير في السّياسة العالمية" واحدة من الجهود البحثية التي وجهت مسارها التحليلي إلى التطور التاريخي للنّظام الدولي، ولا سيما ما حدث من تغيرات في تركيز القوة وتوزيعها بين وحدات النّظام، وهو ما انعكس في صعود وأفول متزعم النّظام والحروب المصاحبة لهذه الظواهر. و يقر جيلبن بأن نظريته وعلى الرغم من استبصاراتها الهامة في فهم وشرح الحروب العظمى في التاريخ الدولي، فهي تبقى نظرية محدودة وغير مكتملة؛ فلا يمكنها التعامل بسهولة مع التصورات المؤثرة على السّلوك، وكذا التنبؤ بمن سيأخذ زمام المبادرة بشن الحرب. كما لا يمكنها التكهن بزمن حدوثها ولا عواقبها. فكما هو الحال في نظرية التطور البيولوجي، فهي تساعدنا على فهم وشرح ما حدث، وليس على صياغة تنبؤات قابلة للاختبار، وبالتالي تلبية المعايير العلمية الصارمة للقابلية للتكذيب. إن نظرية حرب الهيمنة في أفضل حالاتها تشكل مكملا لباقي النظريات، كتلك المتعلقة بعلم النفس المعرفي والمنفعة المتوقعة. ومع ذلك، فقد صمدت في اختبار الزمن أفضل من أي تعميم آخر في حقل العلاقات الدولية، كما تبقى أداة تصورية هامة لفهم ديناميكيات السّياسة العالمية. للمزيد أنظر: ;Cashman, 2014) Gilpin, 1988; Spiezio, 1990;
جيلبن، 2004، 2009؛ ليبو، 2013)

2. التعديلية أو النزعة التعديلية Revesionism نزوع لدى القوى العظمى والدول عمومًا نحو تغيير أو تعديل توازن القوة لصالحها سلمًا أو حربًا، لأن القوة النسبية للدولة في مقابل الدول الأخرى هي الضمانة الأولى لبقاء الدول. ولذلك تقف القوى التعديلية على طرف النقيض من قوى الوضع الراهن التي تسعى للحفاظ على توازن القوة الحالي وذلك لأنه في صالحها.

3. تمت الإستفادة في تأليف كتاب: Destined for War: Can America and China Escape Thucydides's Trap ? من بيانات مشروع « مركز بيلفر للتاريخ التطبيقي» بجامعة هارفارد. حيث حدّدت الدراسة 16 حالة مماثلة للدول الصّاعدة في مواجهة الدول المهيمنة عبر القرون الخمسة الماضية،أين أسفرت 12 حالة منها عن نشوب حرب حقيقية.

4. يقسم العديد من الباحثين النّظام الدولي إلى ثلاثة أنماط: (1) الحرب، (2) السّلام البارد: ويشير إلى الإستقرار المستند إلى المنافسة و الردع المتبادل، (3) السلّام السّاخن: الإستقرار المؤسس على التعاون والطمأنينة المتبادلة. أنظر: (Boulding, 1978; Kupchan, 2001)

5. يرى "كارل دويتش" Karl Deutsch في التغير السّلمي حلاً للمشاكل الإجتماعية من خلال الإجراءات المؤسّسية دون اللجوء إلى قوة جسدية واسعة النّطاق. وعليه، فهذا المفهوم يطرح بشكل خاص أهمية المعايير في خلق عادات وممارسات التغيرات والحلول السّلمية. إضافة إلى ما مدى مشاركة المجتمعات السّياسية للقواعد والأهداف، وكذا "قراءة" الفواعل لسلوكيات بعضها البعض عبر الأشكال المختلفة للحكم.

6. "فخ كيندلبرجر"Kindelberger Trap يشير إلى أنّ الدولة الصّاعدة التي تبدو أضعف مما ينبغي وليس أقوى مما ينبغي. فقد زعم "تشارلز كيندلبرجر" المهندس الفِكري لخطة مارشال والذي اشتغل في وقت لاحق بالتدريس في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، أن عقد الثلاثينيات من القرن الماضي الكارثي حدث عندما حلت الولايات المتحدة محل بريطانيا باعتبارها القوة العالمية الأكبر، غير أنها فشلت في الاضطلاع بالدور الذي لعبته بريطانيا في توفير "السّلع العامة العالمية" World public goods كتوفير الأمن والإستقرار المالي. وكانت النتيجة بالتالي انهيار النّظام العالمي الذي انزلق إلى الكساد والإبادة الجماعيةوالحرب العالمية.

قائمة المراجع:

1. جيلبن، ر. (2004). الاقتصاد السياسي للعلاقات الدولية (تر. م.خ. للأبحاث). دبي: مركز الخليج للأبحاث.
2. جيلبن، ر. (2009). الحرب والتغيير في السياسة العالمية (تر. ع.س. الأيوبي). بيروت: دار الكتاب العربي.
3. ليبو، ر. ن. (2013). لماذا تتحارب الأمم؟ دوافع الحرب في الماضي والمستقبل (تر. إ. ع. ا. علي). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
4. ميرشايمر, ج. (2012). مأساة سياسة القوى العظمى. الرياض: النشر العلمي والمطابع
5. Allison, G. (2017). Destined for War: Can America and China Escape Thucydides's Trap? Houghton Mifflin Harcourt.
6. Antola, E. (1984). Theories of Peaceful Change: an Excursion to the Study of Change in International Relations in the 1930s. Cooperation and Conflict, 19(4), 235–250.
7. Boulding, K. E. (1978). Stable peace. University of Texas Press.
8. Broomfield, E. V. (2003). Perceptions of Danger: The China threat theory. Journal of Contemporary China, 12(35), 265–284. https://doi.org/10.1080/1067056022000054605
9. Buzan, B. (2010). China in International Society: Is "Peaceful Rise" Possible?. The Chinese Journal of International Politics, 3(1), 5–36. http://dx.doi.org/10.1093/cjip/pop014
10. Cashman, G. (2014). What causes war?: an introduction to theories of international conflict. Maryland: Rowman & Littlefield Publishers.
11. Chan, S. (2005). Is There a Power Transition between the U.S. and China? The Different Faces of National Power. Asian Survey, 45(5), 687–701. https://doi.org/10.1525/as.2005.45.5.687
12. fobn Ikenberry, G. (2008). The Rise of China and the Future of the West. Foreign Affairs, 87(1), 23–37.
13. Gilpin, R. (1988). The Theory of Hegemonic War. The Journal of Interdisciplinary History, 18(4), 591–613. https://doi.org/10.2307/204816

14. Kai, J. (2016). Rising China in a Changing World: Power Transitions and Global Leadership. Springer.
15. Kai, J. (2017). Rising China in a Changing World: Power Transitions and Global Leadership. Singapore: Palgrave Macmillan.
16. Kupchan, C. A. (2001). Introduction: Explaining peaceful power transition. Kupchan/Charles A./Alder, Emanuel/Coicaud, Jean-Marc/Khong, Yuen Foong (Eds.): Power in Transition: The Peaceful Change of International Order, New York: UNUP, 1–17.
17. Liu, G. (2004). Chinese foreign policy in transition. Transaction Publishers.
18. Mearsheimer, J. J. (2006). China's unpeaceful rise. Current History-New York Then Philadelphia-, 105(690), 160.
19. Medeiros, E. S., & Fravel, M. T. (2003). China's New Diplomacy. Foreign Affairs, 82(6), 22–35. https://doi.org/10.2307/20033754
20. Miall, H. (2007). Emergent conflict and peaceful change. Springer.
21. Nye, J. (2017). The Kindleberger Trap. China-US Focus, 1.
22. Organski, A. F. K., & Kugler, J. (1981). The war ledger. University of Chicago Press.
23. Pan, Z., & Chen, Z. (2013). Peaceful Rise, Multipolarity, and China's Foreign Policy Line. In The Troubled Triangle (pp. 63–86). Springer.
24. Paul, T. V. (2016). Accommodating rising powers: past, present, and future. Cambridge University Press.
25. Qin, Y. (2011). Development of International Relations theory in China: progress through debates. International Relations of the Asia-Pacific, 11(2), 231–257. http://dx.doi.org/10.1093/irap/lcr003
26. Rauch, C. (2016). Realism and Power Transition Theory: Different Branches of the Power Tree. Realism in Practice, 55.
27. Spiezio, K. E. (1990). British Hegemony and Major Power War, 1815–1939: An Empirical Test of Gilpin's Model of Hegemonic Governance. International Studies Quarterly, 34(2), 165–181. http://dx.doi.org/10.2307/2600707
28. Tammen, R. L., Abdollohian, M., Alsharabati, C., Efird, B., Kugler, J., Lemke, D., ... Organski, A. F. K. (2000). Power Transitions: Strategies for the 21st Century. Washington: CQ Press.
29. World GDP Ranking 2017.May 3, 2018, https://knoema.fr/nwnfkne/world-gdp-ranking-2017-gdp-by-country-data-and-charts